مرويّات تاريخيّة

الاستقلال اللبنانيّ... والشهيدان القوميّان سعيد فخر الدين وحسن عبد الساتر

2/2

لبيب ناصيف*

لاحقاً في 27 نيسان 1944، سقط الدركي الرفيق حسن عبد الساتر شهيداً، دفاعاً عن العلم اللبناني المرفوع فوق قبة البرلمان، في مواجهة الجموع التي حاولت أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء، مستغلة بذلك مناسبة الزيارة الأولى التي يقوم بها النائب المنتخب عن زغرتا يوسف كرم إلى البرلمان، للاستيلاء عليه وطرد النواب منه وإسقاط العلم اللبناني، عساهم بذلك يستعيدون عهد الانتداب الفرنسي.

عن هذا يوضح الأستاذ غسان التويني في الصفحة 206 من «كتاب الاستقلال» أن عناصر موالية لفرنسا ومدعومة من أجهزتها والأجهزة الخاضعة مباشرة لها، من جيش وأمن عام، استغلت مناسبة انتخاب يوسف كرم نائباً لمقعد نيابي شغر في الشمال، فسارت إلى البرلمان وتسلّق بعض الشباب إلى سطح المبنى لإنزال العلم اللبناني ورفع العلم القديم مكانه (العلم الفرنسي وفي وسطه أرزة) فتصدى الدرك للمحاولة وانتصر له بعض المؤيدين، فوقع نتيجة الحوادث خمسة قتلى وسبعة عشر جريحاً.

من ناحيته، يروي الأمين مصطفى عبد الساتر في كتابه «أيام وقضية» أن التظاهرة المسلحة الضخمة اجتازت، كما كان مخططاً لها، من زغرتا إلى بيروت من غير أية محاولة لاعتراضها. وبعدما صارت بحراً هائجاً تدفقت على ساحة النجمة في بيروت تهتف لفرنسا وليوسف كرم. وأصبح البرلمان والنفر القليل من رجال الأمن الذين يحرسونه، جزيرة صغيرة وسط بحر من الرجال الأشداء المسلحين. وانطلقت الشرارة عندما شك الزغرتاويون العلم الفرنسي على باب البرلمان وحاولوا إنزال العلم اللبناني عنه، تصدّى لهم الصحافي آنذاك نعيم مغبغب (النائب لاحقاً) وأطلق النار من مسدسه على محاولي إنزال العلم اللبناني وبدأت المعركة .

« كان الوضع يبدو ميؤوساً منه، وقد اختبأ النواب ورجال الحكومة والحضور في زوايا المجلس، لولا رجولة وبطولة رجال درك سيار بعلبك. أخذت الحماسة بحسن عبد الساتر الذي أخذ يحدو بصوته الجهوري متصدّياً ببطولة للمهاجمين مستفيداً نخوة رفقائه. لفت صوته العالي، وغزارة رصاصه، المهاجمين والفرنسيين المتركزين في بناية الهاتف المقابلة يطلقون منها النار على المدافعين، فأسقطوا حسن عبد الساتر برصاصة قاتلة. ولكن المحاولة فشلت وتراجع المهاجمون مندحرين ولفلفت الحكومة القضية في ما بعد! أذكر في عداد الدرك المدافعين صالح سيف الدين وضاهر مشيك وأبو ممدوح خالد الكردي، بقيادة الضابط عبد اللطيف حمدان على ما أعتقد « .

***

المأتم

وعن مأتم الرفيق الشهيد حسن عبد الساتر يقول الأمين عبد الساتر في كتابه «أيام وقضية»:

«كنت آنذاك أقضي عطلة الربيع في بعلبك. استثارت المعركة البطولية واستشهاد حسن عبد الساتر عواطف البعلبكيين إلى أقصى حد. استقبلوا جثمانه خارج بعلبك بحشود غفيرة رافعة الأعلام اللبنانية الجديدة. وأمام سراي بعلبك، وقفت خطيباً لأول مرة أؤبن قريبي وأطري بطولته واستشهاده وأستثير النقمة على المستعمرين الفرنسيين وعملائهم داعياً إلى الثأر. لم يعجب تطرفي رئيس فرع الكتائب في بعلبك الدكتور أ. حايك، فانسحب من الحفل احتجاجاً.

« كان من المفروض أن ينقل جثمان الشهيد إلى مثواه الأخير في قرية إيعات. وكانت الطريق تمرّ حكماً أمام مركز الأمن العام الفرنسي بجانب هياكل بعلبك. وكانت الدائرة الوحيدة في بعلبك التي لا تزال ترفع العلم الفرنسي بعد أن كان الإنكليز قد قلصوا النفوذ الفرنسي إلى حد بعيد.

«قبل دخول الجثمان إلى بعلبك حسبت للأمر حسابه وأعلنت رفضي بأن يمرّ الجثمان تحت العلم الفرنسي. كان رئيس المركز قريباً لي. اتصلت به ودعوته إلى إنزال العلم حتى لا نضطر إلى إنزاله بالقوة، الأمر الذي يسفر عنه مهاجمة المركز وإحراقه. حاول إقناعي، بروابط القربى، أن أعزف عن ذلك. وأصرّ كل منا على موقفه.

«استدعيت نفراً من الشبان المتحمّسين، قوميين وسواهم، وهيأنا الخطة لاقتحام المركز وإنزال العلم الفرنسي وإحراقه ساعة مرور الجثمان أمام المركز. وقد أظهر الشبان حماسة واندفاعاً في ذلك. ولكن عملية الاقتحام لم تجر لأن الأوامر جاءت من بيروت إلى مركز الأمن العام في بعلبك، بالموافقة على إنزال العلم وطيّه بالحسنى، وطي العلم. وبإنزاله طوي آخر علم فرنسي كان ما زال مرتفعاً في سماء بعلبك. ولم يبق من مظاهر السلطة الفرنسية فيها غير مركز ومنزل المستشار الفرنسي من دون أن يرفع على أي منهما أي علم .

« زاد ذلك في حماسة الجماهير التي حملت جثمان الشهيد على الأكف بموكب مهيب، مسافة خمسة كيلومترات إلى قرية «إيعات» حيث ووري في الثرى وسط احتفالات امتدّت أعراس بطولة على عدد من الأيام إلى ما بعد عيد الشهداء في 6 أيار «. حيث أقيم في سينما «الأمبير» في بعلبك مهرجان خطابي حاشد تكريماً للرفيق الشهيد.

بدورها أقامت عائلة عبد الساتر ذكرى الأربعين في بلدته «إيعات»، وجهت فيها الدعوات إلى قرى وبلدات المنطقة كما مدت ولائم الطعام الضخمة. ألقيت في المهرجان كلمات عديدة كان منها كلمة العائلة ألقاها المواطن جميل عبد الساتر .

***

● كان الرفيق الشهيد حسن عبد الساتر طويل القامة، ممتلئ البنية وقويّها، جهوري الصوت، يغني العتابا بصوت جميل قوي يسمع إلى مسافات بعيدة جداً .

● شقيقه علي موسى عبد الساتر كان في منتصف العشرينات دركياً في الهرمل. يوم اندلعت الثورة السورية وانضم إليها قسم من عشيرة الجعافرة بقيادة زين جعفر في جرد الهرمل، بمساع وتحريض من سعيد العاص (الرفيق الشهيد عام 1936) ونظير النشواتي. أخذ علي موسى عبد الساتر سلاح المخفر والتحق بالثورة، وناضل ببطولة مع الثائرين. ولما همدت الثورة اعتقل في بعلبك وأمضى سنوات طويلة في سجن بيت الدين إلى أن خرج منه بعفو سنة 1936 مريضاً مصاباً بأمراض عصبية ألحقت بأطرافه العليا رجفة دائمة.

***

● أبرزت جريدة «النهار» في عددها الصادر في 28 نيسان 1944 خبر الحادث أمام البرلمان، فأوردت التالي: « ثبت أن النائب يوسف بك كرم قدم من طرابلس ومعه سيارتان من رفاقه فقط. وثبت أن جماعات كانت تنضم إلى هاتين السيارتين في الطريق ثم تندس جماعات غيرها في الموكب كلما تقدم في السير حتى إذا وصل إلى مدخل بيروت كانت جماعات عديدة في انتظاره ، كأنها كانت على موعد» .

● لم تمنح الدولة اللبنانية الشهيد الرفيق حسن عبد الساتر ميدالية، ولا هي أدرجت اسمه في عداد شهداء قوى الأمن، ولم يصلنا أنها ذكرته يوماً عند الحديث عن معركة الاستقلال .

***

الشهيد حسن عبد الساتر أسقط العلم الفرنسي عن قبة البرلمان وسقط.

نشر الصحافي عمر صلح في جريدة «المستقبل» بتاريخ 21/11/2003 تحت العنوان أعلاه، المقال الآتي:

حسن موسى عبد الساتر، من أوائل شهداء الإستقلال في لبنان. لم يقبل فكرة الراحة من عناء الرحلة التي جاءت به الى بعلبك من طرابلس عبر حمص، فالتحق فوراً بالفوج الذي كان متوجهاً الى بيروت في أواخر نيسان من العام 1944، وسقط شهيداً على قبة مجلس النواب، عندما كان ينزع العلم الفرنسي ليضع مكانه العلم اللبناني.

ضريح الشهيد عبد الساتر في إيعات لم يتلق أكاليل الزهور منذ زمن طويل، ولم يحظ بزيارات المسؤولين، حتى في مناسبة الاستقلال، رغم مواكب الرسميين تمر على بعد مئتي متر من ضريحه في المناسبات الوطنية الكبرى، في اتجاه الهرمل لتضع الأكاليل على ضريح الرئيس الراحل صبري حمادة.

وزارت «المستقبل» عائلة الشهيد عبد الساتر في بلدة إيعات، والتقت شقيقه محمد الذي يتحدث بكل فخر واعتزاز عن بطولة حسن ورجولته وصفاته.

ويقول: كان أخي حسن يخدم في فرقة الخيالة التابعة لفصيلة درك بعلبك، وكان قوي البنية، طويل القامة، ومن أكثر الصفات المعروفة عنه، قوة صوته.

ويضيف، كان وطنياً بكل معنى الكلمة. عند عودته من مهمة من طرابلس عبر مدينة حمص الى بعلبك، ولدى وصوله الى الثكنة، صدف أن فوجاً يتهيأ للذهاب الى بيروت، بعد ورود أخبار عن حوادث تشهدها العاصمة، فكان أول الملتحقين بالفوج، علماً أن الضابط المسؤول أعفاه من تلك المهمة، نظراً الى المسافة الكبيرة التي قطعها خلال عودته من طرابلس، لكن حسن رفض الفكرة ورافق الفوج الى بيروت من دون أن يعرّج على منزله ويتفقد زوجته وابنته.

ويتابع: حدّثني أحد أصدقائه في الفرقة، وهو ملحم العريبي، أنهم عندما وصلوا الى ساحة البرج هرب عدد من العناصر نتيجة الفوضى وإطلاق الرصاص العشوائي، لكن حسن بدأ ينشد بصوته الرخيم أغاني وأناشيد وطنية لحث رفاقه على البقاء في أماكنهم، فاستجاب العديدون، وعندها تسلّق حسن الى أعلى مبنى مجلس النواب وانتزع العلم الفرنسي. ولحظة وضع العلم اللبناني، دوى الرصاص مجدداً، فإذا بحسن يسقط جريحاً والعلم اللبناني يرفرف بين يديه. فنقل الى مستشفى أوتيل ديو ليفارق الحياة في اليوم التالي، وذلك في 28 نيسان 1944.

***

نشرت جريدة «النهضة» في عددها 231 تاريخ 29 نيسان 1954 الكلمة الآتية:

الدم القومي في كل مكان ذكرى 27 نيسان 1944.

في 27 نيسان من سنة 1944، استغلت العناصر الفرنسية وأتباعها في لبنان انتخاب النائب يوسف كرم، فبيتّت مؤامرة لقلب الحكم في لبنان عن طريق مظاهرة كبيرة مسلحة انحدرت من الجبال والعاصمة لمرافقة النائب المذكور وإدخاله البرلمان دخول الفاتحين وهي تهدف من وراء ذلك الى احتلال المجلس واغتيال بعض النواب والشخصيات السياسية وإنهاء عهد الاستقلال لإعادة عهد الإستعمار الفرنسي وكادت المؤامرة تنجح، بعدما رفع المتظاهرون العلم الفرنسي على المجلس، لو لم تتصدّ لهم فئة ضئيلة من الجند والمواطنين، وكان على رأسها وفي طليعتها بالطبع، كما هو الحال دائماً، من رفعت العقيدة القومية الاجتماعية نفوسهم من حضيض الذل الى قمم العزة والمجد.

وبرز الدركي حسن موسى عبد الساتر، القومي الاجتماعي، يردّ بعزيمته الجبارة وصدره الواسع وقلبه الكبير، في قلة من رفاقه لم تتجاوز العشرة بعدما فرّ سائر أفراد القوة ورجال الشرطة وانضم بعضهم إلى المهاجمين، برزت هذه القلة المؤمنة، فأحبطت المؤامرة وتصدت للجماهير المندفعة وردّتها على أعقابها خاسرة... وكان صوته الجهوري العظيم يرتفع وسط لعلعة الرصاص ودوي القنابل محمساً رفاقه، داعياً الى الصمود.

ولفت صوته والرصاص المنهمر أنظار المتآمرين وأسيادهم المتمترسين في بناية التلفون وسواها، وبطبيعة الغدر القذرة سقط عليه الرصاص من الخلف حيث لم يكن ينتظره من بعض رجال الأمن أو من المتمركزين في البناية العالية، فهوى صريعاً يتخبط بدمه. وبعدما حقق النصر وأدّى دمه الغالي الرسالة التي نذر كل قومي اجتماعي نفسه لتأديتها من سعيد فخر الدين الى الزعيم الخالد الفادي، الى سلسلة كريمة من الشهداء إفتتحت في ميدان العطاء والإستشهاد صفحات لن تنتهي حتى نحقق لهذه الأمة الناهضة المجد والعز والرفعة.

ولم يطلب حسن عبد الساتر في استشهاده جزاء ولا شكوراً، كما لم يطلب من قبل سعيد فخر الدين ولا أي شهيد سوري قومي اجتماعي، لأن الاستشهاد في عرف السوريين القوميين الاجتماعيين، واجب وعطاء عبّر عنهما زعيمهم الخالد عندما قال: «كل ما فينا هو ملك للأمة حتى الدماء التي في عروقنا هي ملك الأمة متى طلبتها وجدتها « .

ولم ينل حسن عبد الساتر وغير حسن عبد الساتر، بالطبع على يد سلطات العهد الماضي جزاء ولا شكوراً بل على العكس، فقد عمدت تلك السلطات في سياستها الهدامة الى لفلفة التحقيق، والى إضافة ثمن الدم الغالي الذي ما سال إلا ليروي أرض الوطن العطشى الى دماء الأبطال وأساطير البطولة.

بلى، لقد نال رفقاء حسن عبد الساتر ومعلمه في ما بعد، على يد السلطات نفسها الجزاء: جزاء سنمار. ولكن تلك السلطات، زالت وبقيت الأمة، الأمة التي في سبيل مجدها وحدها دون سواها بذل السوريون القوميون الاجتماعيون دماءهم الغالية وهم ما زالوا على استعداد للبذل كلما دعت مصلحة الأمة ذلك، ولسان حالهم في كل طور من أطوار الاستشهاد تقول: « نقضي. إن تمدّ جسومنا جسراً ... فقل لرفاقنا أن يعبروا «.

***

–ولد الرفيق حسن موسى عبد الساتر في إيعات (بعلبك) عام 1909 .

–اقترن من السيدة زينب عبد الساتر، ولم يرزقا أولاداً .

–التحق بسلك الدرك اللبناني .

–انتمى إلى الحزب في منفذية بعلبك عام 1942 .

–أصيب أمام البرلمان اللبناني في ساحة النجمة، بتاريخ 27 نيسان 1944 واستشهد في اليوم التالي، 28 نيسان، في مستشفى أوتيل ديو في بيروت.

***

اكتفينا بالاضاءة الموجزة على «معركة الاستقلال» إذ نحن لسنا في مجال الحديث عن موضوع الاستقلال بكل ما رافقه من اتصالات سياسية، ومن ضغوط مارسها الجانب البريطاني بشخص الجنرال سبيرز، والتي لولاها لكان من غير السهل أن ينال لبنان استقلاله في تلك الفترة. الصراع على النفوذ بين بريطانيا وفرنسا الذي جعل بشارة الخوري يفوز على إميل اده (الفرنسي الميول والاتجاه) في رئاسة الجمهورية، جعله أيضاً يحسم معركة الاستقلال اللبناني.

*رئيس لجنة تاريخ الحزب

الخبر الثقافي

المستشاريّة الثقافيّة الإيرانيّة كرّمت جورج جرداق وكلمات أشادت بشخصيّته الفذّة

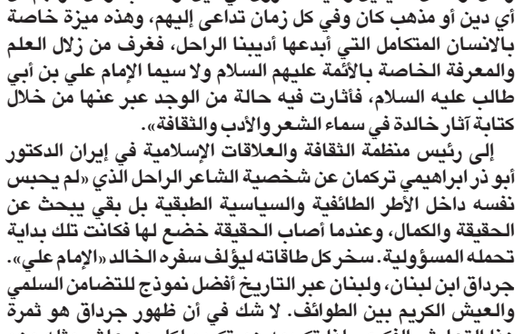

كرّمت المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في لبنان الشاعر والأديب جورج جرداق بحفل في قصر الأونيسكو في ذكرى رحيله، برعاية السفير الإيراني محمد فتحعلي، في حضور الرئيس حسين الحسيني وشخصيات سياسية ودينية واجتماعية وثقافية.

بداية، آي من الذكر الحكيم تلاها المقرىء عباس شرف الدين، فالنشيدان اللبناني والإيراني، وتقديم من الزميل علي قصير.

ثم كانت كلمة رئيس مجلس الشورى الإسلامي الإيراني الدكتور علي لاريجاني ألقاها المهندس حسين شيخ الإسلام الذي قال: «إن الأديب الراحل جورج جرداق ترك لنا كلمة طيبة بعدما قرأ الإمام علي وإرثه الإنساني وأحبه وكتب عنه، وقال فيه: لست لقوم ولا لدين إنما انت للناس اجمعين»، وختم: «التقدير العالي من إيران للشاعر الراحل جرداق الذي نعتبره مفخرة لبنان، والذي سيبقى حيا في ما تركه من إرث أدبي إنساني».

من ناحيته، قال فتحعلي: «نلتقي اليوم في رحاب العلم والثقافة لتكريم شخصية فذة رسمت الحياة بألوان زاهية وتسام إنساني. درس عبقرية الإمام علي منذ صغره، فغرف من معين نهج البلاغة، وكتب موسوعته عن الإمام علي. ان القيم الانسانية العليا هي نفحة من الذات القدسية الإلهية وقد استودعها الله في الإنسان، مما يعني أن التقدير المشترك لجميع أبناء البشر يتجاوز الألوان والقوميات واللغات، فإذا ما تجلت هذه القيم في شخص ما تداعى إليه الناس في كل زمان ومكان بصرف النظر عن ألوانهم وقومياتهم وهذا ما حصل مع أئمة أهل البيت عليهم السلام، فلقد كان الإمام علي عليه السلام وأبناؤه تجسيداً كاملاً للقيم الإنسانية العليا ومن هنا فإنهم لا ينتمون إلى زمان أو مكان معينين ولا يختصرون في دين أو مذهب، ومن عرفهم من أي دين أو مذهب كان وفي كل زمان تداعى إليهم، وهذه ميزة خاصة بالانسان المتكامل التي أبدعها أديبنا الراحل، فغرف من زلال العلم والمعرفة الخاصة بالأئمة عليهم السلام ولا سيما الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فأثارت فيه حالة من الوجد عبر عنها من خلال كتابة آثار خالدة في سماء الشعر والأدب والثقافة».

إلى رئيس منظمة الثقافة والعلاقات الإسلامية في إيران الدكتور أبو ذر ابراهيمي تركمان عن شخصية الشاعر الراحل الذي «لم يحبس نفسه داخل الأطر الطائفية والسياسية الطبقية بل بقي يبحث عن الحقيقة والكمال، وعندما أصاب الحقيقة خضع لها فكانت تلك بداية تحمله المسؤولية. سخر كل طاقاته ليؤلف سفره الخالد «الإمام علي». جرداق ابن لبنان، ولبنان عبر التاريخ أفضل نموذج للتضامن السلمي والعيش الكريم بين الطوائف. لا شك في أن ظهور جرداق هو ثمرة هذا التعايش الفكري، لذا تكريمه هو تكريم لكل من عاش مثله وهم ليسوا قلة. إن احياء ذكراه هو تكريم لبنان التضامن والتسامح الديني والمذهبي (...) إن «التيار التكفيري لم يكن وليد لحظة بل نتاج أموال تم صرفها عليه من دول كبرى»، داعيا الى «الحشد العلمائي البناء والمواجهة الفكرية لهذا التيار».

ثم عرض فيلم وثائقي عن الراحل ومؤلفاته وبعض قصائده بصوته ومقابلات أجريت معه تحدث فيها عن كتابه «الإمام علي – صوت العدالة الإنسانية»، فضلاً عن شهادات من عارفيه.

كلمة العائلة ألقاها هادي جرداق، وممّا قال: «أرى أبي مع إطلالة كل صباح وفي كتبه وأوراقه المبعثرة»، عارضاً لمراحل حياته تحت كنف والده الذي كان يحكي له حكايات الأدب والقصص بحب وحنان.

مدير عام وزارة الثقافة الدكتور فيصل طالب ألقى كلمة وزير الثقافة روني عريجي، ومما جاء فيها: «في زمن غياب الوصل وحضور القطع وهتك العقل واختلال التوازن وتهديد الهوية والشخصية الثقافية، في مثل هذا الزمان نفتقد نجوما في الليالي الظلماء. جورج جرداق واحد من هؤلاء الذين وجدوا في قيم الحق والخير والجمال والشجاعة والحرية والعدالة مواضيع تستحق العمل لأجلها في ميادين الصحافة والنقد والنثر والشعر. جورج جرداق غادرنا مع أحاسيس الخوف من هجره العصافير من أوكارها».

المونسنيور شربل الحكيم ألقى كلمة البطريرك غريغوريوس الثالث لحام، وفيها: «كان هم جرداق هم الضم في الأمة وهم الضمة في اللغة»، ناقلاً «تحية البطريرك لحام الى قادة الجمهورية الإسلامية في إيران. «لقد ترعرع جرداق على لغة الإمام علي وعلى نحو مماثل نشأ على تعاليم الكنيسة التي تجمعها على القيم المنتشرة بإنسانيتها».

المفتي الشيخ أحمد قبلان ألقى كلمة نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى عبد الأمير قبلان، فقال «إن جرداق مسيحي قرأ الوجود بعين الإسلام، غاص في عقل علي بن ابي طالب وكرؤية وجود وتمعن مساره في الله. «إن الانسان بروحه لا بحجائل ضلالته، فمن استأثر على رعية الله لا يؤتمن على إدارة بلاد».

إلى الوزير السابق جوزف الهاشم ملقياً كلمة نثرية أدبية عن جرداق، وجاء فيها «قلم جرداق ما كان إلاّ جامحاً، رهيف الرقة، قيم بالجمال حتى الوله، لم يلح بلاطات القصور».

ثم ألقى المطران الياس كفوري كلمة البطريرك يوحنا العاشر اليازجي، فشكر الجمهورية الإسلامية الإيرانية على رعايتها الحفل، ثم تحدث عن أصل جرداق ونشأته وعن بيئة مرجعيون حيث عائلاتها عربية عريقة وأضاف «لقد اخذ جرداق من الشعر والنثر وتتلمذ على يد رئيف خوري، وقد تأثر بنهج البلاغة للامام علي فكانت موسوعة من خمسة أجزاء «علي صوت العدالة الإنسانية. وختم: «جرداق ينتمي الى الإنسانية جمعاء، وهي حيويته الوحيدة، وكتابته عن الإمام علي لهي صورة بليغة عن الإسلام وعظمته، لقد ركز على القيم المشتركة بين المسيحية والإسلام كالرحمة والخير والمحبة، لقد آمن بالقيامة والحياة الأبدية لذلك أحب الله والناس».

إلى كلمة شيخ عقل الطائفة الدرزية ألقاها الشيخ سامي أبو المنى، ومما جاء فيها: «سأحكي عما كتبه في موسوعته عن الإمام علي وفيها تجلت الروح الإنسانية عند جرداق، في الانسان تلتقي المسيحية والإسلام، لأن الانسان هو خليفة الله في الأرض، وقد نجح جرداق في الكتابة عنه، هذا الإنسان الذي يقتل ويذبح كل يوم في بلادنا». وارتجل قصيدة شعرية من وحي المناسبة.

ختاماً، قدّم السفير محمد فتحعلي درعاً تكريميّة لعائلة الغائب المكرّم.

أيُّها الراحلان الى شرفات الأفئدة

■ رفيق أبو غوش

لم يخجل تشرين من تغييب قامتين كبيرتين مثل صباح وسعيد عقل، قبل أن يستسلمَ، ويلقي عصاه .ولم يخجل القدر من أن يُواري كوكبين في كبد التراب، لكأنّ الشرَّ والإثمَ استسهلا الموت، وتجرّأ الإزلامُ على ساداتهم، وسادَ الكونَ سكونٌ مريب.ولم يخجل لبنان الذي يرتفعُ على أعمدة فنّانيه ومبدعيه من أن يُودي بعظمائه الى النسيان، فينكسر عمودٌ، ثم يليه آخرُ، وقد سبقتهُ أعمدةٌ لتنتشرَ الصحراءُ، وتستقرُّ حبّاتُ الرمل في شوارعه وفي سهرات القمر على شرفات البيوت، وعلى الضياع التي عملقها هذان الكبيران، فضارعت بصوتهم وبشعرهم أقدمَ الحواضر وأعرقها مدنيّةً وحضارة.

لقد نقلتنا صباح من أوحال التنازع ومن التمترس المذهبي والتخلُّف الفكري الى جنّات يتعمشقُ فيها النغمُ جدران الروح، وأوقدت لنا صباحات لم تستطع أيادي الجهل أن تُطفىء جذوتها وبريقها .وأعلنا سعيد عقل كواكبَ تسبحُ حذاءَ المجرّات، ومخلوقات سديميّة تتنفّسُ الكبرَ وتأكل العلاءَ، وتحدّقُ إلى الملكوت.وفعلها قبلهم «الصافي» عندما ارتفعَ بنا الى مصاف الآلهة، وأفقٌ ورادَ السماء حتّى حسبتَ هذا اللّبنان قطعة حلوى من هذا الفردوس الجميل، أو صبيّةً مخلوقةً من جمالات النساء كلّها، أو أيقونةً فُصّلت من سائر المجرّات حتى استقامت على ما هي عليه .

لربما خدعنا هؤلاء العباقرة وظلّوا يُطوّفونَ بنا حتّى اعتقدنا أننا اصبحنا آلهة، وأنّ لبناننا هذا خُلقَ بمرسوم خاصّ وأوحد، وأنّ لا شبيهَ لهُ إلاّ الجنّات الموعودات والسهول المفتوحة عندَ مبيت الشمس. لقد نسيوا أو تناسوا أنّنا خليطٌ ماكرٌ مجنون.وأنّ هذه الجنّة التي أوجدوها إنّما حطّمنا هياكلها بأيدينا، وأكلنا لحمها بشراسة، وتركنا حقولها نهباً للريح والوجع والغربة، وأنّ تلكَ الأعمدة تتداعى واحداً بعدَ الآخر، وأنّ هذه العمارة باتت مكاناً للغربان وبنات العناكب، وأنّ الكبارَ في هذا الوطن لم يبقَ لهم مكانٌ بينَ متصاغرين .

أهيَ لعنةُ السماء ؟ أو هيَ دموعُ الأخيار وأصحاب الكبرياء على هذه الأرض التي لم تعد لهم والتي دنّسها المتمذهبونَ الجدد؟ أهي غصّةُ الغيارى على وطن صار بحجم شائعة ومستقبل يُبنى على أيدي المفسدين أصحاب الياقات الفاخرة ودعاة المذاهب الجهنّمية ؟

إنّ رحيل العمالقة ربّما يُؤذنُ بخواء الأزمنة وانقطاع حبل السرّة ما بينَ الإبداع والمستقبل، ولعلّهُ من تعاسة الزمان أن يفرغ من آلهته ومن صباحاته الممشوقة على ضفاف بردوني سعيد عقل وجارة واديه، وأن يبقى الجبلُ يُنادي علّة شموخه فلا تجيبُ الأودية إلاّ عزيفَ الصدى.

نسيت إنكلترا جميع ملوكها، ودخلَ ساسةُ التاريخ بعظمتهم وسلطانهم وبطشهم بوّابةَ النسيان، وتحطّمت أصنام التاريخ كافة، لكنّ أيّاً منها لم يستطع أن ينالَ من عبقرية شكسبير ولا من فرادة هوغو ولا من حديقة بودلير وأزهاره.وهكذا فقد تنهارُ ممالك وتُستباحُ أوطانٌ وتتغيّرُ خرائط، لكن العباقرة والشعراء والفنّانين في هذا الوطن المطعون سوف يبقونَ يبلّلون صباحاتنا، ويلهمونَ أجيالنا، ويكتبونَ أسطورةَ العظمة، ويوقدون مشاعل الأحلام المؤجّلة، والصفحات الناصعة لهذا الوطن العصيَّ على حماقة سياسييّه، والشامخ على وضاعة ما يرتكبون .وسيبقى هؤلاء فرسانَ الزمن الجميل الذي صنعتهُ «رندلى» والأعمدةُ وشعشعات الشعر المنبثقة من هامة باسقة، وياقة حمراء هي أشرفُ من عفن سياساتهم .وستبقى «الضيعة» وصوتُ الشحرورة، وحزمة الأغاني نغماً عُلويّاً يدلّ الحالمَ الى حنجرة المدينة .

أظنُّ السماء قد نزلت الى الأرض، وأخالها تعتذرُ منكما أيُّها المسافران الى شرفات الأفئدة.

رئبال الشآم

■ ناجي المخّ

جُدودُ الطَّامحينَ المَجْدَ شامُ ... وحيثُ اللّيثُ يُبْتدَأُ الكَلامُ

وقاصيها ودانيها سماءٌ ... وكُلُّ الناظِرينَ لها اسْتَقاموا

وما أَدْري طلوعُ الشّمْسِ هذا ... أمِ الرِّئْبالُ والأَسَدُ الهُمامُ !

على يُمْناهُ بادِئَةُ الليالي ... وفي يُسْراهُ لو شاءَ الخِتامُ

بَدٍ والحادِثاتُ مُقَذَّفاتٍ ... سَمِيَّ الوَجْهِ طالِعُهُ ابْتِسامُ

ويا لَهَفي ويا لَهَفي عَلَيْهِ ... حماهُ اللهُ والحُسَّادُ ذاموا

وَما اسْطاعوا له جَلْبَ المَآسي ... وإنْ قَعَدوا على شَرٍّ وقاموا

بُغاةُ الحَرْبِ مِنْ عَرَبٍ البَيادي ... لَهُمْ في الدَّهْرِ شُرْبٌ والطَّعامُ

وَمَجْلوبونَ مِنْ صَخَبِ الصَّحارى ... وَهُمْ في الصَّحْوِ خَسْفٌ أَوْ نِيامُ

فَحَسْبُ اللهِ ما آنَسْتُ يَوْمًا ... بِهِمْ صُبْحًا وما قَرَّ الظَّلامُ

وَحُكْمُ بني غُنَيْبَةَ بن لُهَيْبٍ ... أجارَ النَّقْصَ وانْسَدَلَ التَّمامُ

بِوِدِّي لَوْ يَفَرِّقُهُنَّ مَوْتٌ ... وَتَنْجابُ القلانِسُ والعِمامُ

ولكنْ في بِلادِ الشامِ لَيْثٌ ... أعادَ لنا الخِلافَةَ تُسْتَدامُ

فلا نَزَلَت على أَحَدٍ غُيومٌ ... سوى شامِيَّةٍ هذي الغُمامُ

عَزيزٌ مِنْ أَبٍ لأبٍ مُخوفٌ ... يَلومُ اللائمينَ وَلا يُلامُ

فَمَنْ في الشِّعْرِ والكَلِماتِ مِثْلي ... إذا المَعْنى هُمو القُوْمُ الكِرامُ

لِمَنْ في الشّامِ مُحْمودُ المَعالي ... ومَنْ في دارِهِ طَابَ المَقامُ

وَمَنْ لو زارَ مَكّةَ في مَنامٍ ... هُوَ الحَسَنُ المُبَجَّلُ والإمامُ

ومَنْ لَوْلاهُ ما اسْطَتْيَبْتُ أَرْضًا ... وما اسْتُبْقيتُ والدّنْيا انْعِدامُ

ومَنْ لَوْلاهُ لا لَيْلٌ سَبوحٌ ... ولا الإسلامُ حِلٌّ أَوْ سَلامُ

ومَنْ لَوْلاهُ ما سَلِمَتْ دِمَشْقٌ ... مِنَ الأَعْرابِ مَنْ لا يُسْتَضامُ

ومَنْ يُمناهُ أَوْ يُسْراهُ سَيْفٌ ... يَنالُ الصَّيْدَ والرَّمْحُ القَوامُ

وسَبْحُ الوَصْفِ في مَعْناهُ عادٍ ... وما اتّسَعَ التَّكَلُّمُ والكَلامُ

وما جارَ الزّمانُ وفي دِمَشْقٍ ... لَنا الحُفّاظُ والبُشْرُ المُرامُ

تُطالِعُني الشّواغِلُ في الليالي ... وليْسَ بِغَيْرِهِ يُبْدى اهْتِمامُ

وَمَنْ غَيْرُ ابنِ حافِظَ باتَ يُجْدي ... مَغانيكُمْ أَمِ القَصَصُ الكَلامُ !

إذا افْتَرَقَتْ قُلوبٌ عَنْ قُلوبٍ ... فَإنَّ مَعادَنا الآتي الشَّآمُ

أمسية للسيمفونيّة الوطنيّة السوريّة مع خماسيّ دمشق النحاسيّ

كتب سامر اسماعيل من دمشق (سانا): اختار المايسترو ميساك باغبودوريان مقدمة أوبرا «ميترياداته ملك بونتو» لمؤلفها فولفانغ أماديوس موزار افتتاحية لأمسية الفرقة السيمفونية الوطنية التي أحيتها على مسرح الدراما، ورافقها خماسي دمشق النحاسي الذي ضم العازفين، أروى شيخاني (كمان) ومسلم رحال (ناي)، ومحمد عثمان (بزق) ومحمد نامق (التشيللو)، لتكون هذه الأمسية أقرب إلى عشاق الموسيقى الكلاسيكية التي أسست لها جمهوراً عريضاً عبر حفلات دار الأسد للثقافة والفنون منذ افتتاحها عام 2004.

قدمت الفرقة السيمفونية الوطنية برنامجاً منوعاً هذه المرة، مستندةً إلى خبرة عازفيها وقائدها باغبودوريان الذي آثر في هذا الحفل تقديم تحفة الموسيقي لودفيغ فان بيتهوفن من مقام سلم صول ماجور (مصنف أربعون) إذ أدت هذه المقطوعة المكتوبة للأوركسترا مع عازفة الكمان أروى شيخاني، لتتجلى النقلات اللحنية ذات الانطباع الرومانسي في هذه الفقرة من الحفل، وصولاً إلى تألق عالي المستوى بين آلة الكمان وجوقة العازفين التي قدمت بدورها أداءً جماعياً لافتاً على مستوى التناغم بين الفرقة والمايسترو ودخول الكمان عليها.

فرانس فون سوبيه لم يغب عن أمسية السيمفونية الوطنية فحضرت مقطوعته «الفلاح والشاعر» وأعقبتها مقطوعة من التراث السوري عنوانها «يا محلا الفسحة» مكتوبة لآلة التشيللو والوتريات من إعداد الفنان ناريك عبجيان، جنباً إلى جنب مع عازف التشيللو محمد نامق الذي قدم بدوره أداءً لافتاً على آلته في ما يشبه حوارية بين التشيللو وجوقة الكمنجات والآلات الإيقاعية، وصولاً إلى تناغم لحني ومقامي بين الجملة الشرقية والغربية في مقطوعة من مقام الحجاز كرد. كما قدمت الفرقة مقطوعة تانغو لآلة البزق والوتريات من إعداد الفنان جوان قرجولي أعدها عن مؤلفات أمير البزق محمد عبد الكريم وعزفها منفرداً محمد عثمان، ثم كان الجمهور بعدها على موعد مع فقرة خاصة تحت عنوان «رقصجي» من ألحان وأداء عازف الناي الفنان مسلم رحال، جنباً إلى جنب مع جوقة الوتريات، إذ تمكن رحال بدعم من السيمفونية الوطنية من التعشيق بين آلة الناي الشرقية والآلات الغربية في تناغم مقامي متقن للغاية.

خماسي دمشق ختم هذه الأمسية الدمشقية بمقطوعة «سريانيات» بمشاركة من جوقة الوتريات في السيمفونية الوطنية، فقدم كل من راني إلياس ودلامة شهاب ترومبيت ومحمود العاقل ترومبون وفؤاد شلغين هورن وشربل اصفهان توبا أداءً لافتاً من الموسيقى السورية القديمة، معتمدين على غنى هذه الموسيقى وقدرتها على التأثير في الجمهور وجذبه أكثر نحو مناخاتها السحرية التي تعد حقاً جذر لموسيقى العالم.

تميز خماسي دمشق النحاسي الذي تأسس عام 2000 بأنه تشكيلة آلية متوازية صوتياً، إضافة إلى قدرته وطواعيته في عزف جميع أشكال الموسيقى، لذا كان مخزون خماسي دمشق مليئاً بالأعمال الموسيقية من جميع العصور الموسيقية الكلاسيكية إلى موسيقا الجاز والموسيقى الشعبية، إذ عمل هذا الخماسي على نحو مستمر ومنذ تشكيله على إعادة توزيع أعمال من التراث الموسيقي والغنائي السوري والعربي وتقديمه بشكل آلي صرف لكسب اهتمام الجمهور وتسليط الضوء على القدرة الموسيقية الآلية لهذا الفريق الفني.